بلاغة التقديم والتأخير بين الأفعال في القرآن الكريم

"نماذج مختارة"

أ.هالة مصباح بن هامل
محاضر مساعد / البلاغة والنقد
كلية اللغة العربية – الجامعة الأسمرية الإسلامية – ليبيا.
halahmisbahalibinhamil@gmail.com

الملخص:

يعد التقديم والتأخير من أهم المباحث البلاغية، فلا يخفى دوره في مطابقة الكلام لمقتضى الحال، بحيث يقدم ماحقه التأخير، ويؤخر ما حقه التقديم مراعاة لظروف المتكلم والمخاطب ومقام الخطاب، وللتقديم والتأخير في النص القرآني أهمية كبيرة، فهو يرتبط بالمعنى بشكل مباشر؛ لأن المعنى يقتضي ما تقدم، أو تأخر تبعا لأهداف السورة وموضوعاتها وسياقاتها التي جاءت فيها وفي هذا البحث بيان لأهم الأغراض البلاغية الكامنة وراء تقدم فعل على آخر أو تأخيره. الكلمات المفتاحية: التقديم والتأخير الاصطلاحي، وغير الاصطلاحي، السياق، الفاصلة القرآنية، المقاصد القرآنية.

Abstract:

Hysteron proteron (Moving a Word Forward or Placing It Backward) is considered one of the most important rhetorical field of researches. Its role in speech conformity according to circumstances is not hidden, where what should have come last is moved forward, and what should have come first is placed backwards, taking into account the circumstances of the speaker, the addressee, and the context of the speech, In Qur'anic Texts, Hysteron Proteron is of great importance, as it is directly related to the meaning which requires what have been moved forward or placed backward depending on the goals, topics and contexts of the Surah in which it came in.

In this research, an explanation of the most important rhetorical purposes behind moving a verb forward before another or placing it backward.

Keywords: Idiomatic Hysteron Proteron, and Non-idiomatic, Context,Quranic Objectives, Quranic Comma.

المقدمة

الحمد لله الذي علم بالقلم، علم الإنسان ما لم يعلم، والصلاة والسلام على نبيه الأعظم، وعلى آله وصحبه وسلم.

وبعد ... فيعد التقديم والتأخير من الموضوعات الأساسية في علم البلاغة العربية؛ فهو أحد الأركان التي يقوم عليها علم المعاني، لما له من وثيق الصلة بقصد المتكلم، وحال المخاطب، ومقام الخطاب، التي يُعنى بها علم المعاني في سعيه لوضع ضوابط توصل المعنى من المتكلم إلى المحاطب بوضوح وخلو من التعقيد واللبس.

وقد لفت انتباهي غير مرة تقديم فعل على آخر لو قدم هو لما تغير المعنى، فتترتب في الكلام وفق ترتبها في النفس، وهو أمر يختلف من متكلم لآخر، فوددت أن أبحث عن الأسرار البلاغية وراء هذه الظاهرة خاصة في العطف، فكون الواو مثلا لمطلق الجمع لا يعني ذلك أن النص القرآني يجمع بها الأفعال على غير ترتيب[1]، فهو يضعه الموضع الذي يضيف للنص معنى لا يمكن لغيره أن يضيفه، ولكثرة وروده في النص الكريم، وتعدد أنواعه وأغراضه، وضيق المقام على الإحاطة به، اقتصرت على بعض نماذجه رصدت صور التقديم والتأخير فيها وحللتها تحليلا بلاغيا، والتزمت في توثيق الآيات وتخريجها رواية الإمام قالون عن نافع المدني المكتوب بالخط الكوفي، كما التزمت في ترتيب الشواهد ترتيب السور حسب ورودها في المصحف ثم ترتيب الآيات في السور، وتقوم خطة البحث على تمهيد ومبحثين هذا بيانهما: المبحث الأول: التقديم والتأخير الاصطلاحي ويشمل: المطلب الأول: الاهتمام. المطلب الثاني: الشرف والفضل. المطلب الثالث: مناسبة السياق. المطلب الرابع: السببية. المبحث الثاني: التقديم والتأخير غير الاصطلاحي ويشمل. المطلب الأول: الاهتمام. المطلب الثاني: الشرف والفضل. المطلب الثالث: مناسبة السياق. المطلب الرابع: السببية. الخاتمة: تتضمن نتائج البحث.

1- من بلاغة القرآن، ص90.

الـتـمـهـيـد

إذا كان الغرض الأساسي من علم المعاني ـ كما يقول السكاكي ـ الاحتراز من الوقوع في الخطأ في تطبيق الكلام على ما يقتضي الحال ذكره[2]، فإن ترتيب الكلام تقديما وتأخيرا، وحذفا وذكرا...إلخ، له دوره في مطابقة الكلام لمقتضى الحال، فقد يقتضي الحال تقديم ماحقه التأخير أو تأخير ما حقه التقديم، خروجا عن مقتضى الظاهر والمألوف، ولكنه لا يخرج عن دائرة الكلام البليغ.

ويمكن تحديد مفهوم التقديم والتأخير في نظم الكلام وتأليفه بأنه تبادل في مواقع الكلمات، بحيث تترك الكلمة مكانها في المقدمة، وتحل محلها كلمة أخرى؛ لتؤدي غرضا بلاغيا ما كانت لتؤديه لو أنها بقيت في مكانها المحدد الذي اقتضته قاعدة الانضباط اللغوي[3]، وقد جعله البعض من المجاز؛ لأنه نقل للفظ عن رتبته وحقه، "والصحيح أنه ليس منه؛ فالمجاز نقل ما وضع له إلى ما لم يوضع له"[4]،أي أنه يركز على أصل مفترض، قد يتقدم الكلام عليه وقد يتأخر، ويخضع ذلك الأصل لطابع اللغة، ونمطها المألوف في ترتيب أجزاء الجملة، كتقدم المبتدأ على الخبر، والفعل على الفاعل، وعلى الرغم من مرونة العربية في ترتيب أجزاء جملها نتيجة وجود حركات الإعراب التي تحدد المعنى فإن العلماء يفترضون أصلا في التركيب يُقاس إليه العدول، ولا مقتضى للعدول عن الأصل إلا باعتبارات محددة[5]، ومن ثم فإنه يقوم على عنصرين: أحدهما، ثابت يتمثل في وجود أطراف الإسناد وما يتصل بها، والآخر متغير، يتمثل في تحريك هذه الأطراف من أماكنها الأصلية إلى أماكن جديدة، ويتولد عن هذين العنصرين المعنى والدلالة، ويبقى المعنى ثابتا مع التقديم أو التأخير، أما الدلالة فتتأثر بتغير نظام ترتيب الجملة بعد تقديم ما حقه التأخير فيها[6]، وإذا كان اهتمام النحاة منصبا على مسألة الرتبة؛ لكونها ممثلة لمثالية الأداء في التركيب المألوف، فإن اهتمام البلاغيين بهذه الرتب لا يكون إلا بالمقدار الذي يساعد على كشف الأغراض البلاغية وراء هذا التقديم والتأخير.

2- مفتاح العلوم، 7.

3- أسلوبية الانزياح في القرآن الكريم، 15.

4- البرهان في علوم القرآن، 233/3.

5- مفتاح العلوم، 93-111.

6- البلاغة والأسلوبية، 333.

ولعل أشهر تقسيم للتقديم والتأخير عند البلاغيين هو تقسيم عبد القاهر الجرجاني، الذي جعله قسمين: التقديم على نية التأخير، والتقديم لا على نية التأخير، وبهذا يكون مقابلا لتقسيم النحاة له إلى: الرتبة المحفوظة، والرتبة غير المحفوظة، فالتقديم عنده "يقال إنه على نية التأخير، وذلك في كل شيء أقررته مع التقديم على حكمه الذي كان عليه، وفي جنسه الذي كان فيه"[7]، فالمتقدم يحتفظ بوظيفته النحوية التي كان عليها قبل التقديم، ويقال: إنه تقديم لا على نية التأخير حين "تنقل الشيء عن حكم إلى حكم، وتجعله بابا غير بابه، وإعرابا غير إعرابه، وذلك أن تجيء إلى اسمين يحتمل كل واحد منهما أن يكون مبتدأ ويكون الآخر خبرا له، فتقدم تارة هذا على ذلك، وأخرى ذلك على هذا"[8]أي أن المقدم لا يحتفظ بوظيفته النحوية التي كان عليها قبل التقديم.

بينما قسَّمه ابن الأثير إلى ضربين: الأول يختص بدلالة الألفاظ على المعاني ولو أُخِّر المقدّم أو قدّم المؤخر لتغير المعنى، والثاني يختص بدرجة التقدّم في الذكر؛ لاختصاصه بما يوجب له ذلك ولو أخر لما تغيَّر المعنى. فالضرب الأول ينصرف إلى الرتب النحوية، ويشمل التقديم والتأخير بين المسند والمسند إليه وبين العامل ومعموله، وبين المتعلقات فيما بينها، وبين التوابع[9]، وقد سبق الحديث في ذلك، والضرب الثاني ـ الذي يهمنا هنا ـ ينصرف إلى الرتب المعنوية، أي أنه يختص بالمعاني وترتيبها في الكلام بحسب ترتيبها في النفس، وهو أمر يختلف من شخص لآخر، ولا يهتم بالرتب النحوية التي يحدث أي تغيير فيها، تقديماً أو تأخيرا، تغييراً في المعنى.

ومن الأمثلة التي ذكرها ابن الأثير على هذا النوع من التقديم: تقديم السبب على المسبب، وتقديم الأكثر على الأقل، وتقديم الأعجب فالأعجب، وتقديم الأفضل فالمفضول، وقد ذكر على كل منها عدداً من الأمثلة مشيراً إلى أن أمثلة هذا الضرب من التقديم، لا يحصره حد، ولا ينتهي إليه شرح[10].

ثم جاء من بعده العلوي، ورأى أن الألفاظ تابعة للمعاني، والمعاني في التقديم لها أحوال خمسة هي: تقديم العلة على معلولها، والتقدّم بالذات، والتقدّم بالشرف، والتقدّم بالمكان، والتقدّم بالزمان[11]، وجَعَلَ التقديم والتأخير حالتين:

7- دلائل الإعجاز، 106.

8- السابق.

9- المثل السائر، 210/2.

10- المثل السائر، 223/2.

11- الطراز، 57/2-58.

ما يجب تقديمه، ولو أخِّر لفسد المعنى وتغيَّر، وما يجوز تقديمه، ولو أخِّر لما فسد المعنى ولا تغيَّر، وقد أفرد لكل من هاتين الحالتين تقريرا، مبيّنا في التقرير الثاني منهما أن الشيئين إذا كان كل واحد منهما مختصاً بصفته تقتضي تقديمه على الآخر فالمتكلّم بالخيار في تقديم أيهما شاء، وهو بهذا يكرر كلام ابن الأثير في هذه المسألة، محاولاً بيانه وتوضيحه؛ لأن ابن الأثير قدَّم الرأي ذاته في سياق حديثه عن التقديم المعنوي، ولكنه لم يضع القاعدة التي صاغها العلوي في التقرير الثاني، بل جعلها في ثنايا كلامه، فجاء العلوي وجعلها في تقرير منفصل في ختام كلامه عن (التقديم والتأخير).

ومن الملاحظ أن هذا النوع من التقديم والتأخير ليس له نصيب ذو قيمة عند البلاغيين، إنما عنى به المفسرون كأبي السعود في تفسيره ، والزمخشري في كشافه، وقد أسماه بعضهم أو

ومن خلال استقراء بعض نماذج تقديم الأفعال على بعضها في القرآن الكريم اتضح أنها تأتي على ثلاثة أنواع: تقديم اصطلاحي، وتقديم غير اصطلاحي، وما قدم في آية وأخر في أخرى، وفيما يلي تفصيل للنوعين الأول والثاني كل في مبحث مستقل، والوقوف على بعض نماذجها القرآنية لبيان الأغراض البلاغية الكامنة وراءها، في حين فضلت أن يستقل النوع الثالث منها ببحث خاص به في قابل الأيام؛ لاتساعه وعلاقته بالسياق العام للسور الوارد فيها مما لا يتسع المجال لتفصيله هنا، وقد اعتمدت ـ في هذا التقسيم ـ على ما جاء به المطعني في كتابه (خصائص التعبير القرآني) فقد سمى اختلاف النظم في العبارات ذات المعنى الواحد بالتقديم والتأخير غير الاصطلاحي[12]، غير أني جعلت غير الاصطلاحي كل تقديم وتأخير عَدَل عن الترتيب المنطقي أو الزمني بين الأفعال، والاصطلاحي ما وافق هذا الترتيب ، بينما جعلت ما ذكره المطعني في التقديم غير الاصطلاحي تحت مسمى ما قدم في موضع وأُخر في آخر.

المبحث الأول: التقديم والتأخير الاصطلاحي

يقصد بالتقديم الاصطلاحي ما يختص بترتيب الأفعال في الذكر على حسب ترتيبها في النفس ولو تقدم ما قُدم أو تأخر لما تغير المعنى، وهذا الترتيب لا يخالف الترتيب الزمني أو الوجودي للأفعال، وله الكثير من الأسباب لا يحصرها حد ولا ينتهي إليها شرح كما ذكر ابن الأثير.

المطلب الأول: الاهتمام ورعاية الفاصلة

12- خصائص التعبير القرآني وسماته البلاغية، عبد العظيم المطعني،147/2 .

أولا- الاهتمام: في قوله تعالى:﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱرۡكَعُواْ مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ﴾[13] ذكر من جملة الشرائــع ما كان كالمقدم والأصل فيها، فالصلاة هي أعظم العبادات البدنية، والزكاة هي أعظم العبادات المالية، وقدم الأمر بالصلاة لأنها الأهم[14]، وهي محط الاهتمام والعناية؛ فالعناية والاهتمام تكون بأسباب عدة كالأهمية ،والتعجيل، والإيثار ، والحاجة إلى التوكيد ...إلخ[15]، كما قدمت لشمول وجوبها ولأن فيها من الإخلاص والتضرع للحضرة[16]، وفي هذا تعريض بالمنافقين؛ إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة لا يؤديهما إلا من هو صادق، أما المنافقون فإنهم﴿وَإِذَا قَامُوٓاْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُواْ كُسَالَىٰ﴾[17].

ومنه تقديم الفعل(كلوا)على الفعل(اعملوا) في قوله:﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُواْ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعۡمَلُواْ صَٰلِحًاۖ إِنِّي بِمَا تَعۡمَلُونَ عَلِيمٞ﴾[18]؛ لأن أكل مُعين على العمل الصالح[19]، وفيه موافقة لما قبله في قوله:﴿وَءَاوَيۡنَٰهُمَآ إِلَىٰ رَبۡوَةٖ ذَاتِ قَرَارٖ وَمَعِينٖ﴾[20]على تقدير حمل الطيب على ما يستلذ من المباحات، وفي الأمر بعده بالعمل الصالح حث على الشكر[21]، كما أن فيه بيان كرامة الرسل عند الله ونزاهتهم في أمورهم

13- البقرة: 42، ومثلها البقرة: 82، 109، 276، النساء: 76، التوبة: 5، 11، 72، النور: 54، المزمل: 20، البينة: 5.

14- البرهان، 235/3.

15- بلاغة التقديم والتأخير في القرآن الكريم ، علي أبو القاسم عون ، 141/1-148.

16- روح المعاني، 247/1.

17- النساء: 141، التحرير والتنوير، 247/1.

18- المؤمنون: 52.

19- التفسير الكبير، 105/23، البحر المحيط، 377/6، روح المعاني، 40/18.

20- المؤمنون: 51.

21- روح المعاني، 40/18.

الجسمانية والروحانية، وقد تقدم الأول؛ للاهتمام به ، فالأكل من الطيبات نزاهة جسمانية والعمل الصالح نزاهة نفسانية، وفيه إيماء إلى أن همة الرسل إنما تنصرف إلى الأعمال الصالحة[22].

ثانيا ـ الاهتمام مع رعاية الفاصلة: وذلك في مثل قوله تعالى:﴿وَأَنَّهُۥ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَىٰ﴾ [23] وقد ذكر المفسرون معاني عديدة للضحك والبكاء في هذه الآية، والظاهر حقيقة الضحك والبكاء[24]، لمناسبتها لما قبلها وما بعدها[25]، وقدم فعل الضحك على البكاء؛ لأن فيه اهتماما بزيادة التنبيه على القدرة، وحصل بذلك رعاية الفاصلة[26].

ومن الملفت أن ترتيب الأفعال في هذه الآية موافقا لترتيبها في قولهﷺ عندما مر على قوم من أصحابه وهم يضحكون: "لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلا و لبكيتم كثيرا"[27]، وقد روي عن السيدة عائشة ـ رضوان الله عليها ـ نزول جبريل ـ عليه السلام ـ بعد قوله هذا لأصحابه "فقال: يا محمد! إن الله يقول لك: ﴿وَأَنَّهُۥ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَىٰ﴾[28]، فوافقت هذه الآية ما قبلها وما بعدها من الآيات، كما وافقت قول رسوله الذي كان سبب نزولها.

ومنه قوله تعالى: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلصَّبْرِ﴾[29]فقد تقدم فعل الإيمان عمل الصالحات لأهميتها، ثم عطف عليهما التواصي بالحق والتواصي

22- التحرير والتنوير: 68/18.

23- النجم: 42.

24- الكشاف، 648/5، البحر المحيط، 165/8.

25- التفسير الكبير، 19/29، روح المعاني، 68/27.

26- التحرير والتنوير، 143/27.

27- صحيح مسلم، باب: توقيرهﷺ، وترك سؤاله عما لا ضرورة إليه، أو لا يتعلق به تكليف، وما لا يقع، ونحو ذلك، 2359، ص1181.

28- الجامع لأحكام القرآن ، 20 / 58 .

29- العصر : 3 .

بالصبر لبيان أنهم لشدة محبتهم للطاعة لا يقتصرون على ما يخصهم بل يوصون غيرهم بمثل طريقهم ليكونوا أيضا سببا لطاعات الغير[30]، ثم عطف على عمل الصالحات التواصي بالحق وإن كان من عمل الصالحات، عطف خاص على عام؛ للاهتمام به لأنه قد يُغفل عنه، ثم عطف على التواصي بالحق التواصي بالصبر مع دخوله فيه عطف خاص على عام أيضا؛ لإبراز كمال الاعتناء به، فالصبر تحمل مشقة إقامة الحق وما يعترض المسلم من أذى في نفسه في إقامة بعض الحق[31]، أو لأن التواصي بالحق رتبة العبادة التي هي فعل ما يرضى به الله تعالى، والتواصي بالصبر رتبة العبودية التي هي الرضا بما فعل الله تعالى، فإن المراد بالصبر ليس مجرد حبس النفس عما تتشوق إليه من فعل وترك بل هو تلقي ما ورد منه تعالى بالرضا ظاهرا وباطنا، وقد حصل بتقدم التواصي بالحق وتأخير التواصي بالصبر رعاية الفاصلة[32].

المطلب الثاني: الفضل والشرف

وذلك في مثل قوله :﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَنْ يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَـٰفِرِينَ﴾[33]فمحبة الله لعباده رضاه عنهم وتيسير الخير لهم، وإثابتهم أحسن الثواب على طاعتهم، ومحبة العباد لربهم طاعته وامتثال أمره والدفاع عن دينه، والابتعاد عما يوجب سخطه وعقابه، وابتغاء مرضاته[34]، ومحبة الله أعظم وأشرف وأعلى منزلة من محبة عباده له[35]، وقد جعل الرازي في تفسيره الغرض وراء هذا التقديم السببية، فالله تعالى "قدم محبته لهم على محبتهم له ، وهذا حق لأنه لولا أن الله أحبهم وإلا لما وفقهم حتى صاروا محبين له"[36]، وقريب من هذا

30- التفسير الكبير، 89/32.

31- تفسير أبي السعود، 573/5، روح المعاني، 239/30، التحرير والتنوير، 533/30.

32- تفسير أبي السعود، 573/5.

33- المائدة: 56.

34- الكشاف، 256/2، التحرير والتنوير، 236/6.

35- التحرير والتنوير، 236/6.

36- التفسير الكبير، 26/12.

قوله:﴿رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾[37]في السورة نفسها و"رضى الله مستعمل في إكرامه وإحسانه مثل محبته في قوله(يحبهم)، ورضى الخلق عن الله و محبته وحصول ما أملوه منه بحيث لا يبقى في نفوسهم متطلع"[38] ولا شيء أعز من رضوانه تعالى[39] ولا أعظم؛ ولذلك قُدم.

أما في قوله:﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَن فِي ٱلْأَرْضِ أَلَآ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾[40]تقدم التسبيح والتحميد على الاستغفار لأهل الأرض؛ لأن التسبيح والتحميد أشرف وأهم من الاستغفار[41]، وقريب منه قوله تعالى مخاطبا النبي الأعظم ﷺ:﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَٱسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابًا﴾[42] فقد جاء في التفسير الكبير سبب التقديم هو الابتداء بالأشرف[43]، وجاء في روح المعاني أن تقديم التسبيح والحمد على الاستغفار على طريقة النزول من الخالق للخلق، "وذلك لأن في التسبيح والحمد توجها بالذات لجلال الخالق وكماله وفي الاستغفار توجها بالذات لحال العبد وتقصيراته ويجوز أن يكون تأخير الاستغفار عنهما إشارة لمشروعية تعقيب العبادة بالاستغفار، وقيل في تقديمهما عليه تعليم أدب الدعاء وهو أن لا يسأل فجأة من غير تقديم الثناء على المسؤول منه"[44]، أما ابن عاشور فقد جعله راجع إلى كون التسبيح "وصف الله تعالى بالتنزه عن النقص، وهو يجمع صفات السلب، فالتسبيح متمحض لجانب الله تعالى، ولأن الحمد ثناء على الله لإنعامه وهو أداء العبد ما يجب عليه لشكر المنعم فهو مستلزم إثبات صفات الكمال لله

37- الآية: 121، وقد ورد أيضا في التوبة: 101، المجادلة: 22، البينة: 8.

38- التحرير والتنوير، 120/7.

39- تفسير أبي السعود، 159/2.

40- الشورى: 5.

41- التفسير الكبير، 146/27.

42- النصر: 3.

43- 162/32.

44- 295/30.

التي هي منشأ إنعامه على عبده فهو جامع بين جانب الله وحفظ العبد، وأما الاستغفار فهو حظ العبد وحده لأنه طلب الله أن يعفو عما يؤاخذه عليه"[45] ومن الواضح هنا أنه يعيد ما جاء في روح المعاني بشرح وتفصيل لطريقة النزول من الخالق إلى الخلق، مع ملاحظة أنه أشار إلى أن التقديم "تمهيد لإجابة استغفاره على عادة العرب في تقديم الثناء قبل سؤال الحاجة ... فكان تعليق الأمر بالتسبيح وبالاستغفار على حصول النصر والفتح إيماء إلى تسبيح واستغفار يحصل بها تقلب لم يُنْو من قبل، وهو التهيؤ للقاء الله، وأن حياته الدنيوية أوشكت على الانتهاء"[46]، وفي بداية هذا النص ما يقرب من كلام الألوسي في نهايته.

والناظر إلى هذه الأقوال يجد أن التقديم بالأشرف الذي قال به الرازي يكاد يكون نفسه النزول من الخالق إلى الخلق الذي قال به الألوسي وابن عاشور؛ لأنه يتضمن تقديم ما يخص الله على ما يخص عبده؛ لكونه أشرف وأعظم منه، وهذا لا يتعارض مع بقية الآراء، ولا ضير من الأخذ بها جميعها مع التأكيد على أهمية التقديم بالفضل والشرف كونه الأهم والأظهر.

المطلب الثالث: مناسبة السياق :

من ذلك قوله:﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضاً حَسَناً فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥ أَضْعَافاً كَثِيرَةً وَٱللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْصُطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾[47] أي يوسع على عباده ويقتر، وقد تأخر الفعل يبسط على يقبض في الذكر لمناسبته ما تقدم ذكره من وجوه: أحدها، أنه تعالى يوسع على عباده ويقتر، فلا تبخلوا عليه بما وسع عليكم، لئلا يبدل السعة الحاصلة لكم بالضيق[48]، وثانيها، أنه تعالى لما كان هو القابض الباسط، فإن كان تقدير المأمور بالإنفاق الفقر فلينفق المال في سبيل الله، فإنه سواء أنفق أو لم ينفق فليس له إلا الفقر، وإن كان تقديره الغنى فلينفق فإنه سواء أنفق أو لم ينفق فليس له إلا الغنى والسعه وبسط اليد، وفي كلا التقديرين يكون إنفاق المال في سبيل الله أولى، وثالثها، أن الإنسان إذا علم أن القبض والبسط بيد الله انقطع نظره عن مال الدنيا، وبقي اعتماده على الله، ورابعها، أنه تعالى لما أمرهم بالصدقة وحثهم عليها أخبر أنه لا يمكنهم ذلك إلا بتوفيقه

45- السابق.

46- السابق.

47- البقرة: 243.

48- الكشاف، 470/1.

وإعانته فقال: (والله يقبض ويبسط) يعني يقبض القلوب حتى لا تقدم على هذه الطاعة، ويبسط بعضها حتى يقدم عليها، ثم قال: (وإليه ترجعون) والمراد به إلى حيث لا حاكم ولا مدبر سواه، وخامسها، أن في تأخير البسط على القبض في الذكر إيماء إلى أنه يعقبه في الوجود تسلية للفقراء[49]، وسادسها أن في ذلك تعريض بالوعد بالتوسعة على المنفق في سبيل الله، والتقتير على البخيل[50]، وفي الحديث: "اللهم أعط منفقا خلفا ، وأعط ممسكا تلفا"[51].

وأضاف الزركشي أنه قدم القبض لأن قبله(من ذا الذي يقرض الله قرضا حسنا فيضاعفه له أضعافا كثيرة) وكان هذا بسطا، فلا يناسب تلاوة البسط، فقدم القبض لهذا، وللترغيب في الإنفاق؛ لأن الممتنع عنه سببه خوف القلة، فبين أن هذا لا ينجيه، فإن القبض مقدر ولا بد[52].

وقوله:﴿ٱللَّهُ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَنْ يَّشَآءُ وَيَقْدِرُ ۖ وَفَرِحُواْ بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلاَّ مَتَاعٌ﴾[53] تقدم (يبسط) على (يقدر) مناسبة لما تقدم ففي قوله في الآية السابقة:﴿وَٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوٓءُ ٱلدَّارِ﴾[54] من أنه قد حكم على من نقض عهد الله في قبول التوحيد والنبوة بأنهم ملعونون في الدنيا، معذبون في الآخرة، ولما كان كثير من الكافرين فتحت عليهم نعم الدنيا ولذاتها، وكثير من المؤمنين قُتر عليهم رزقهم، أخبر تعالى أنه هو الذي يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر، فبسط الرزق على

49- تفسير أبي السعود، 370/1، روح المعاني، 163/2.

50- التحرير والتنوير 483/2.

51- صحيح مسلم، باب: في المنفق والممسك، 1010، ص461.

52- البرهان 263/3.

53- الرعد: 27، وقد ورد أيضا في الإسراء: 30، القصص: 82، العنكبوت: 62، الروم 36، سبأ: 36- 39، الزمر: 49، الشورى: 10- 25.

54- الرعد: 26.

الكافرين لا يدل على كرامتهم، والتقتير على بعض المؤمنين لا يدل على إهانتهم، فالكفر والإيمان لا تعلق لهما بالرزق، وقد يقدر على المؤمن ليعظم أجره، ويبسط للكافر إملاء لازدياد آثامه[55].

أما في قوله في ذات السورة:﴿يَمْحُواْ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثَبِّتُۖ وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ﴾[56]، تقدم فعل المحو على الإثبات لسبقه بقوله: ﴿لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ﴾[57]، للدلالة على ما أن ما يقع عليه المحو أقل مما يقع عليه الإثبات، ولا سيما على قراءة التشديد في (يثبت)؛ فإنها ناصة على الكثرة [58]، وقد عطف على هذه الآية قوله:﴿وَإِن مَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ وَعَلَيْنَا ٱلْحِسَابُ﴾[59]؛ وذلك "باعتبار ما تفيده من إبهام مراد الله في آجال الوعيد ومواقيت إنزال الآيات، فبينت هذه الجملة أن النبي ﷺ ليس مأمورا بالانشغال بذلك ولا بترقبه، إنما هو مبلغ من الله لعباده والله يعلم ما يحاسب به عباده سواء شهد النبي ﷺ ذلك أم لم يشهده"[60]، بذلك ناسبت الآية الكريمة ما قبلها ومهدت لما بعدها.

ومنه قوله:﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًاۖ فَإِن يَشَإِ ٱللَّهُ يَخْتِمْ عَلَىٰ قَلْبِكَۗ وَيَمْحُ ٱللَّهُ ٱلْبَٰطِلَ وَيُحِقُّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦٓۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾[61] فقد سبق ما يقتضي تقديم (يمح)

55- الجامع لأحكام القرآن، 63/12.

56- 40.

57- الرعد: 39.

58- البرهان، 263/3.

59- الرعد: 41.

60- التحرير والتنوير، 169/13.

61- الشورى: 22.

على (يحق) في قوله:﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾[62]، أي: كيف يكون افتراء ومن عادته تعالى محو الباطل ومحقه، وإثبات الحق بوحيه أو بقضائه[63]، و"يجوز أن يكون هذا وعدا من الله لرسوله بأنه يمحو الباطل الذي هم عليه من البحث والفرية والتكذيب، ويثبت الحق الذي كان عليه محمد ﷺ عليه"[64].

وفي قوله:﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا﴾[65] قدم الفلاح على الخيبة لمناسبته للتقوى في قوله:﴿فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا﴾[66]، وأردف من دسى نفسه لتهيئة الانتقال إلى الموعظة بما حصل لثمود من عقاب على ما هو أثر التدسية[67]، ويجوز أن يكون جملة معترضة بين القسم وجوابه لمناسبة ذكر إلهام الفجور والتقوى، أي أفلح من زكى نفسه واتبع ما ألهمه الله من التقوى، وخاب من اختار الفجور بعد أن ألهم التمييز بين الأمرين بالإدراك والإرشاد الإلهي[68].

المطلب الرابع: السببية :

من ذلك قوله:﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّواْ مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُواْ فُرُوجَهُمْ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾[69] فقد قدم الأمر بغض الأبصار على حفظ الفروج؛ "لأن النظر بريد الزنا ورائد

62- البرهان، 263/3.

63- روح المعاني، 35/25.

64- التفسير الكبير، 169/27.

65- الشمس: 9-10.

66- الشمس: 8.

67- التحرير والتنوير، 371/30.

68- السابق.

69- النور: 30.

الفجور، والبلوى فيه أشد وأكثر، ولا يكاد يقدر على الاحتراس منه"[70]، كما أنه الباب الأكبر إلى القلب، وأعمر طرق الحواس إليه[71]، كما أن في هذا التقديم تنبيهًا على المبالغة في غض الأبصار في محاسن النساء[72]، وقد ذيل بقوله:﴿إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾، لأنه كناية عن جزاء ما يتضمنه الأمر من الغض والحفظ، لن القصد من الأمر الامتثال[73]، وعلى القول بالتقديم للسببية غالبية المفسرين.

وتجدر الإشارة هنا إلى أن التقديم قد يكون بالداعية كما ذهب صاحب البرهان بقوله في سر هذا التقديم: "لأن البصر داعية إلى الفرج"[74]، وجعله في موضع آخر للغلبة والكثرة[75]، فالنظر أكثر وقوعا من الزنا، في حين جعله غيره للسبق في الحدوث؛ لأن فعل العين يسبق فعل الفرج في الحدوث[76]، والظاهر أنه لا تعارض بين هذه الأغراض فالآية تحتمل السببية و الأكثرية والسبق في الحدوث، والأظهر الأول والله أعلم .

وفي قوله تعالى:﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ نُشُرَۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً طَهُورًا لِّنُحْيِىَ بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا وَنُسْقِيَهُۥ مِمَّا خَلَقْنَا أَنْعَٰمًا وَأَنَاسِىَّ كَثِيرًا﴾[77] قدم إحياء الأرض؛ "لأن حياة الأناسي بحياة أرضهم وحياة أنعامهم، فقدم ما هو سبب حياتهم وتعيشهم على سبقهم، ولأنهم إذا ظفروا بما يكون سقيا أرضهم ومواشيهم لم يعدموا سقياهم"[78].

70- الكشاف، 289/4.

71- البحر المحيط، 413/6.

72- التحرير والتنوير، 205/18.

73- السابق.

74- 251/3، والداعية عنده غرض مستقل عن السببية.

75- 261/3.

76- بلاغة التقديم والتأخير في القرآن الكريم، 192/1.

77- الفرقان: 48- 49.

78- الكشاف، 360/4.

وفي قوله:﴿وَفِرْعَوْنَ ذِى ٱلْأَوْتَادِ ٱلَّذِين طَغَوْا۟ فِى ٱلْبِلَاد فَأَكْثَرُوا۟ فِيهَا ٱلْفَسَادَ فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ﴾[79] قدم الطغيان على الفساد؛ لأنه "يجري صاحبه على دحض حقوق الناس فهو من جهة يكون قدوة سوء لأمثاله وملائه، فكل واحد يطغى على من هو دونه، وذلك فساد عظيم، لأن به اختلال الشرائع الإلهية والقوانين الوضعية الصالحة وهو من جهة أخرى يثير الحفائظ والضغائن في المطغي عليه من الرعية... فتصبح للأمة أعداء في الخارج وأعداء في الداخل وذلك يفضي إلى فساد عظيم"[80]، وفي الوقت نفسه قدم الفساد لأنه سبب أيضا في غضب الله عليهم، فصب عليهم عذابه لأنه لا يحب الفساد[81]، وقد استعمل الصب هنا لاقتضائه السرعة في النزول على المضروب[82].

المبحث الثاني: التقديم والتأخير غير الاصطلاحي :

يقصد به هنا التقديم المبني على عدول في الترتيب الأصلي للأفعال كأن يقدم فعل على آخر يسبقه في الزمن والوجود؛ لأغراض بلاغية متنوعة منها ما هو معنوي ومنها ما هو لفظي، مع التنبيه على أهمية هذه الأغراض التي قد تغلب أحيانا أصالة بعض الحروف في الترتيب كالفاء مثلا، فقد تقدم في المتعاطفين على غير المعهود فيها من الترتيب والتعقيب.

المطلب الأول: الاهتمام ورعاية الفاصلة :

أولا- الاهتمام: من ذلك ما ورد في قوله:﴿وَقِيلَ يَٰٓأَرْضُ ٱبْلَعِى مَآءَكِ وَيَٰسَمَآءُ أَقْلِعِى وَغِيضَ ٱلْمَآءُ وَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ﴾[83]، فقد تقدم إبلاع الأرض والأصل تقديم إقلاع السماء، بدليل قوله:﴿فَفَتَحْنَآ أَبْوَٰبَ

79- الفجر: 10- 13.

80- التحرير والتنوير، 322/30.

81- السابق.

82- البحر المحيط، 465/8.

83- هود: 44.

ٱلسَّمَآءِ بِمَآءٍ مُّنْهَمِرٍ وَفَجَّرْنَا ٱلْأَرْضَ عُيُوناً فَالْتَقَى ٱلْمَآءُ عَلَىٰ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ﴾[84]؛ وذلك لأهمية الأرض في ابتداء الطوفان منها ، ونزولها في القصة منزلة الأصل، والأصل أولى بالتقديم، ثم إن البلع هو السبب الأعظم لغيض الماء[85].

وقوله:﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُواْ وَءَاثَارَهُمْ ﴾[86]، أي نبعثهم من القبور بعد موتهم للحساب والجزاء ، ونكتب ما قدموا في الحياة الدنيا من حير وشر، ومن صالح أعمالهم وسيئها[87]، وفي ذلك عدول عن الأصل؛ لأن كتابة ما قدموا تسبق إحياءهم، وقد حمل بعض المفسرين معنى الإحياء إخراجهم من الشرك إلى الإيمان، وجعلوا الموت مجازا عن الجهل، وقد رده القرطبي وغيره[88]، والظاهر أن المراد بالكتابة الكتابة في صحف الملائكة الكرام الكاتبين ولكونها بأمره ـ عز وجل ـ صُدرت بـ (إن) التي تفيد التوكيد، وأسندت إليه سبحانه، ثم أكدت بالضمير المنفصل (نحن)؛ للدلالة على العظمة والجبروت، والقدرة المطلقة لعملية الإحياء، وقد أخرت في الذكر عن الإحياء مع أنها مقدمة عليه؛ لأجل لفت انتباه المتلقي إلى أهمية الدلالة، فلولا البعث والحساب لانعدم تأثير الكتابة وإحصاء الأعمال، وقد أكد هذا بقوله: ﴿وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُّبِينٍ ﴾[89]، وبين ما أُجمل فيه ، فكان عطفها مراعا فيه ما اشتملت عليه من زيادة الفائدة[90]، إذا "فالإحياء هو المعتبر، والكتابة مؤكدة معظمة لأمره ، فلهذا قدم الإحياء"[91] .

84- القمر: 11- 12.

85- التحرير والتنوير، 78/12- 79.

86- يس: 11.

87- الكشاف، 168/5، صفوة التفاسير، 8/3.

88- الجامع لأحكام القرآن، 419/17، البحر المحيط، 312/7، روح المعاني، 219/2.

89- يس: 11.

90- التحرير والتنوير، 357/22.

91- التفسير الكبير، 49/26.

ومنه قوله:﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ﴾[92] فالقياس أن يقدم (يولد) على (يلد)؛ لأنه أسبق منه في الوجود كما ورد في قوله:﴿وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ﴾[93]؛ لكنه عدل عن ذلك ردًا على كل من جعل لله ولدا، فمشركو العرب قالوا الملائكة بنات الله، ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ﴾[94]، ولم يدَّع أحد أن له والدا[95] أو"لكثرة متوهمي خلاف الأول دون خلاف الثاني"[96]؛ لهذا نفت الآية عنه إحاطة النسب من جميع الجهات، فهو الأول الذي لا ابتداء لوجوده، القديم الذي كان ولم يكن معه شيء غيره[97] كما جاء في قوله:﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾[98]، وفيه إيماء إلى أن من يكون مولودًا مثل عيسى ـ عليه السلام ـ لا يكون إلها[99].

ثانيا ـ الاهتمام ورعاية الفاصلة: قدم فعل العبادة على الاستعانة في قوله: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾[100]، مع أن العبادة لا تتم ولا تتحقق إلا بمعونة الله وتوفيقه؛ وذلك لغرضين اثنين: أولهما معنوي، وهو الاهتمام وقد أورد المفسرون له أسبابا عديدة يمكن جمعها بإيجاز كما يلي:

92- الإخلاص: 3.

93- البلد: 3.

94- صفوة التفاسير، 621/3.

95- الكشاف، 461/6.

96- روح المعاني، 275/30.

97- روح المعاني، 275/30.

98- الشورى: 9.

99- روح المعاني، 275/30.

100- الفاتحة: 4.

1-العبادة أمانة لقوله:﴿إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَانُ﴾[101]، فوجب الاهتمام بها بتقديمها[102].

2-رفع الوهم؛ وذلك أنه لما نسب المتكلم العبادة إلى نفسه أوهم ذلك تبجحا واعتدادا منه بما يصدر عنه، فعقبه بقوله (وإياك نستعين) ليدل على أن العبادة مما لا يتم إلا بمعونة منه وتوفيق[103]، فلا يمكن أداء العبادة بدون عون المعبود للعابد.

3-العبادة مما يتقرب به العبد إلى ربه والاستعانة ليست كذلك، فالعبادة قربة والقربة قبل الحاجة، بينما الاستعانة لنفع المخلوق فناسب أن يُقدم ما هو من عزمه وصنعه على ما هو من سؤله وطلبه[104].

4-العبادة وسيلة لطلب الحاجة لنها أدعى للإجابة، والوسيلة تقدم على الغاية[105].

5- أنها مطلوبة لله تعالى من عباده، والاستعانة مطلوبهم منه سبحانه، فتقديم العبد ما يريده مولاه منه أدل على صدق العبودية من تقديم ما يريده هو من مولاه[106]، أي أن تقديم ما يُخص به الله أولى من تقديم ما يُخص به عبده.

6- العبادة واجب شرعي لا مناص للعبد عن الإتيان به، حتى جُعلت كالعلة لخلق الجن والإنس لقوله:﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ﴾[107]؛ وبذلك كانت أحق بالتقديم.

7- أن مبدأ الإسلام التخصيص بالعبادة، والخلوص من الشرك والتخصيص بالاستعانة بعد الرسوخ[108].

101- الأحزاب: 72.

102- روح المعاني: 88/1.

103- السابق.

104- السابق، التحرير والتنوير، 186/1.

105- الكشاف، 120/1- 121.

106- روح المعاني، 88/1.

107- الذاريات: 56.

8- العبادة من متطلبات حصول الاستعانة، فالعبادة سبب في تحقيق الاستعانة؛ لذلك كان تقديمها أجدر لتحصيل المقصود.

9- الحصر بتقديم مفعول العبادة حقيقي؛ لأنه لا معبود بحق إلا هو، والحصر بتقديم مفعول الاستعانة ادعائي؛ لأن الاستعانة قد تكون بغيره سبحانه لقوله: ﴿وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ﴾[109]، ولكنه لا يستعين في عظائم الأمور إلا بالله، وتقديم ما حصره حقيقي أولى من تقديم ما حصره ادعاء[110].

وثانيهما لفظي، يتمثل في رعاية الفاصلة، فبتقديم(نعبد) على(نستعين) تحقق التوافق مع فواصل الآيات الأخرى، "ولو قال:(نعبدك ونستعينك) لذهبت تلك الطلاوة، وزال ذلك الحسن"[111].

ومنه تقديم(أمات) على(أحيا) على غير الأصل في قوله:﴿وَأَنَّهُۥ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا﴾[112]؛ للتنبيه على أن العبرة بالإماتة، والرد على قولهم:﴿وَقَالُواْ مَا هِيَ إِلاَّ حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلاَّ ٱلدَّهْرُ﴾[113]، وقد أكد هذا المعنى بإنزال الفعلين منزلة اللازم؛ إظهارا لبديع القدرة على هذا الصنع الحكيم مع التعريض على الاستدلال على كيفية البعث وإمكانه حيث أحاله المشركون، وشاهِده في خلق أنفسهم[114].

المطلب الثاني: الفضل والشرف :

108- روح المعاني، 88/1.

109- المائدة: 3.

110- التحرير والتنوير: 186/1.

111- المثل السائر : 219/2.

112- النجم: 43.

113- الجاثية: 23، التحرير والتنوير، 144/27.

114- السابق.

في قوله تعالى:﴿يَٰمَرۡيَمُ ٱقۡنُتِي لِرَبِّكِ وَٱسۡجُدِي وَٱرۡكَعِي مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ﴾[115]، تقدم فعل السجود على الركوع على خلاف الأصل باعتبار الوجوب والتكليف، كما جاء في قوله:﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱرۡكَعُواْ وَٱسۡجُدُواْ﴾[116] وقد قيل أن السجود كان مقدمًا على الركوع في شريعتهم[117]؛ فيكون بذلك أسبق بالأداء والتكليف، وقيل قدم السجود هنا لشرفه وفضله على الركوع[118]، فهو أفضل أركان الصلاة وأقصى درجات الخضوع؛ فـ"أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد"[119]، وأضاف ابن عاشور أن السجود هنا قدم؛ لأنه أدخل في الشكر والمقام مقام شكر[120].

وفي قوله:﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَقَالُواْ لِإِخۡوَٰنِهِمۡ إِذَا ضَرَبُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ أَوۡ كَانُواْ غُزّٗى لَّوۡ كَانُواْ عِندَنَا مَا مَاتُواْ وَمَا قُتِلُواْ لِيَجۡعَلَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ حَسۡرَةٗ فِي قُلُوبِهِمۡۗ وَٱللَّهُ يُحۡيِۦ وَيُمِيتُۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ وَلَئِن قُتِلۡتُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوۡ مُتُّمۡ لَمَغۡفِرَةٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَحۡمَةٌ خَيۡرٞ مِّمَّا يَجۡمَعُونَ وَلَئِن مُّتُّمۡ أَوۡ قُتِلۡتُمۡ لَإِلَى ٱللَّهِ تُحۡشَرُونَ﴾[121] تقدم (قتلتم) على (متم) في قوله: (ولئن قتلتم في سبيل الله أو متم) على خلاف ما ورد في الآيتين السابقة واللاحقة لها، فما السر وراء ذلك ؟!

115- آل عمران: 43.

116- الحج: 75.

117- التفسير الكبير، 48/8، البحر المحيط، 478/2، روح المعاني، 157/3.

118- التفسير الكبير، 48/8، البحر المحيط، 478/2، البرهان، 260/3.

119- صحيح مسلم، باب: ما يقال في الركوع والسجود، 42، ص228.

120- التحرير والتنوير، 244/3.

121- آل عمران: 156- 158.

لقد تضمن هذا النص القرآني تحقيرًا وتحريضًا وترغيبًا وترهيبًا على التوالي، تحقيرا لأمر الدنيا وتزهيدا في طلب لذاتها التي لا ينتفع الإنسان بها بعد موته البتة، وتحريضا على الجهاد في سبيله؛ ليحرز الثواب من وراءه يوم لا ينفعه ماله ولا بنوه، وقد شبه الرازي حال الإنسان في ذلك بمن تخلص من عدوه ووصل إلى محبوبه فقال: "الإنسان إذا توجه إلى الجهاد أعرض قلبه عن الدنيا وأقبل على الآخرة؛ فإذا مات فكأنه تخلص من العدو ووصل إلى المحبوب، وإذا جلس في بيته خائفا من الموت حريصا على جمع الدنيا، فإذا مات فكأنه حجب عن المعشوق وألقي في دار الغربة، ولا شك في كمال سعادة الأول، وكمال شقاوة الثاني"[122]، وترغيبا ببيان زيادة مزية القتل في سبيل الله وفضله وشرفه، وكثرة ثوابه، وعظمه عند الله، واستجلابه المغفرة والرحمة، وترهيبا بجعل الموت والقتل وسيلة للحشر والحساب.

وقد تقدم الموت على القتل في الآية الأولى، بناء على كثرة وقوعه[123]، ولمناسبته ما قبله من قوله:(إذا ضربوا في الأرض أو كانوا غزا)[124] ، بينما تقدم القتل على الموت في الآية الثانية لفضله وشرفه[125]، ولأن ترتيب المغفرة والرحمة عليه أقوى[126]، وتقدم الموت على القتل مرة أخرى في الآية الثالثة؛ لأنه الأغلب والأكثر[127].

وجعل صاحب التحرير الغرض من تقدم القتل في الآية الثانية والموت في الآية الثالثة اعتبار بعطف ما يظن أنه أبعد عن الحكم، فإن كون القتل في سبيل الله سببا في المغفرة أمر قريب، ولكن الموت أمر مستبعد، وكذلك تقديم الموت لأن القتل في سبيل الله قد يظن أنه بعيد عن أن يعقبه الحشر، مع ما فيه من التفنن ومن رد العجز على الصدر[128]، والظاهر ـ والله أعلم ـ أن رأي ابن عاشور وإن احتمله المعنى أبعد مما ذكره غيره، لقرب

122- التفسير الكبير، 59/9.

123- تفسير أبي السعود، 587/1.

124- البحر المحيط، 103/3.

125- الكشاف، 646/1.

126- روح المعاني، 105/4.

127- السابق.

128- 143/4.

تفسيرهم لمعنى الآيات، ومناسبته للسياق بما فيه من تحقير وتحريض وترغيب وترهيب، واتفاق غالبية المفسرين عليه.

المطلب الثالث: مناسبة السياق

كما في قوله:﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَا أَجَلُهُمْ لاَ يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلاَ يَسْتَقْدِمُونَ﴾[129] فقد ورد (يستأخرون) قبل (يستقدمون) وهذا خلاف الأصل[130]؛ وذلك لأن السياق وعيد لأهل مكة بعدم خلاصهم من العذاب النازل في أجل معلوم لا يسبقونه ولا يتأخرون عنه[131]، فقدم المؤخر للتنبيه على استحالة تأخيره عن أجله المعلوم وهو ما يوائم ما سبقه في السياق.

وفي قوله:﴿وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ﴾[132] قدم الإراحة على التسريح مع أنه متأخر عنه في الوجود؛ لأن الجمال عند الإراحة أقوى وأبهج لكونها أعظم ما تكون أسنمة وضروع، وأظهر في استتباع ما ذكر من الجمال، وأتم في استجلاب الأنس والبهجة، لحضورها بعد غيبتها وإقبالها بعد إدبارها[133].

وفي قوله:﴿إِنْ هِيَ إِلاَّ حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ﴾[134] قدم (نموت) على (نحيا) على خلاف الأصل الذي يقتضي تقديمه كما ورد في كثير من المواضع[135]؛ وذلك توافقا مع قولهم: (إن

129- الأعراف: 32، ومثله يونس: 49، النحل: 61، سبأ: 30.

130- المطلب الرابع من المبحث الأول.

131- الكشاف: 440/2.

132- النحل: 6.

133- الكشاف، 424/3، الجامع لأحكام القرآن، 274/12.

134- المؤمنون: 37.

135- منها البقرة: 27، 257، 258، آل عمران: 156، الأعراف: 158، التوبة: 117، يونس: 56، المؤمنون: 81، الروم: 39، 49، غافر: 68، الدخان: 7، الجاثية: 25، الأحقاف: 32، الحديد: 2، 15، القيامة: 39.

هي إلا حياتنا الدنيا)[136]، وقريب منه قوله:﴿وَقَالُواْ مَا هِيَ إِلاَّ حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلاَّ ٱلدَّهْرُ﴾[137].

وقوله:﴿فَسُبْحَـٰنَ ٱللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ﴾[138] قدم (تمسون) على (تصبحون) مع أنه يسبقه؛ إما لأن الاستعمال العربي يعتبرون فيه الليالي مبدأ عدد الأيام، وعليه تقديم الليل على النهار في مواضع عدة من القرآن الكريم[139] ، وإما مناسبة للسياق فقد ورد عقب ذكر الحشر والإعادة من قوله:﴿ٱللَّهُ يَبْدَؤُاْ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾[140] ، وذكر قيام الساعة ناسب أن يكون الإمساء وهو آخر اليوم خاطرا في الذهن فقدم ذكره[141].

المطلب الرابع: تقديم المسبب على السبب

قوله تعالى:﴿وَكَم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَـٰهَا فَجَآءَهَا بَأْسُنَا بَيَاتاً أَوْ هُمْ قَآئِلُونَ﴾[142] يقتضي أن يكون الإهلاك متقدما على مجيء البأس وليس الأمر كذلك، فإن مجيء البأس مقدم على الإهلاك، وللمفسرين في ذلك آراء يمكن إجمالها في وجوه: الأول، أن الفاء هنا تفسيرية، وذكر البأس تفسيرا للإهلاك وإخبارا بكيفيته،

136- الجامع لأحكام القرآن، 43/15، روح المعاني، 33/18.

137- الجاثية: 23.

138- الروم: 16.

139- منها البقرة: 163، 273، آل عمران: 27، 41، 190، الأنعام: 1، إبراهيم: 35، النحل: 12، النور: 44، غافر: 61، المزمل: 20.

140- الروم: 10.

141- التفسير الكبير، 108/25، روح المعاني، 29/21، التحرير والتنوير، 66/21.

142- الأعراف: 3.

فيكون من عطف المفصل على المجمل[143]، والثاني: أن البأس والهلاك يقعان معا، فلما تلازما لم يبال أيهما قدم في الرتبة[144]، والثالث: أن الفاء لترتيب القول فقط أو بمعنى الواو، وهو ضعيف[145]، والرابع: أن الهلاك بمعنى الخذلان وعدم التوفيق وهو استعارة من اطلاق المسبب على السبب[146]، والراجح ــ والله أعلم ــ أن (أهلكناها) مجاز مرسل مستعمل في معنى إرادة الفعل؛ لإفادة زعم الفاعل على الفعل، عزما لا يتأخر عنه العمل، والاتيان بالفاء بعد ذلك للدلالة على عدم التريث، لتهديد السامع المعاند، وتحذيره من أن يحل عليه غضب الله فيهلكه، لكي يتدارك أمره ويعجل بتوبته[147]، وفي قوله: ﴿وَامْرَأَتُهُۥ قَآئِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَٰهَا بِإِسْحَٰقَ وَمِنْ وَّرَآءِ إِسْحَٰقَ يَعْقُوبَ﴾[148]الأصل بشرناها بإسحاق فضحكت[149]، وكان ضحكها ضحك تعجب واستبعاد[150]؛ وذلك تعجيلا بإظهار عظم فرحة امرأة إبراهيم ـ عليه السلام ـ بالبشارة بعد طول انتظار، وإنما بشروها دونه؛ لأن المرأة أعجل فرحا بالولد؛ ولأنه قد بُشر أُمن من خوفه، فأتبعوا بشارته بشارتها، أو لأنها لم يكن لها ولد وكان له ولده إسماعيل[151].

143- التفسير الكبير، 23/14، الجامع لأحكام القرآن، 152/9، البحر المحيط، 269/4، روح المعاني، 78/8، التحرير والتنوير، 20/8.

144- التفسير الكبير، 23/14، الجامع لأحكام القرآن، 152/9، التحرير والتنوير، 20/8.

145- الجامع لأحكام القرآن، 152/9، البحر المحيط، 269/4، روح المعاني، 78/8.

146- البحر المحيط، 269/4، روح المعاني، 78/8.

147- التحرير والتنوير، 20/8-21.

148- هود: 70.

149- البحر المحيط: 243/5، روح المعاني، 97/12.

150- التحرير والتنوير، 119/12.

151- التفسير الكبير، 26/18، البحر المحيط، 243/5، روح المعاني، 97/12.

وقوله:﴿ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ﴾[152] أي: دنا جبريل عليه السلام من رسول الله ﷺفتعلق في الهواء[153]، فقدم (دنا) على (تدلى) وهذا مخالف للأصل ، وللمفسرين فيها وجوه: أولها، أنه دنا إلى العالم الأرضي بعد أن تلقى ما يبلغه للنبي ﷺ ثم نزل من طبقات السماء إلى ما تحتها كما يتدلى الشيء المعلق في الهواء[154]، وعلى هذا فعطف الفعلين على القياس، وثانيها، أن كلا الفعلين بمعنى واحد أو كالواحد، فجاز تقديم أي منهما[155]، وثالثها، أن دنا أعم من تدلى، وقد أفاد العطف بيان هيئة الدنو، أي أنه عطف خاص على عام[156]، ورابعها ـ والذي يهمنا هنا ـ أن الكلام مبني على التقديم والتأخير، والأصل فيه أن جبريل ـ عليه السلام ـ تدلى من السماء فدنا من الرسول ﷺ؛ لأن التدلي سبب الدنو[157]، وهو من تقديم المسبب على السبب.

الخـــاتـمـــة

يؤكد التقديم والتأخير في القرآن الكريم عامة، وبين الأفعال خاصة على بلاغته ودقته، حيث إن كل تقديم وتأخير فيه، على حكمة بالغة وقدرة فائقة، ليس فيه ما يُفسد المعنى، وليس هناك ما يقوم مقامه، فكأن المعنى يقتضي ما تقدم، أو تأخر اقتضاء طبيعيا، تبعا لأهداف السور وموضوعاتها وسياقاتها التي جاءت فيها، وهذا ما يجعل قارئ تلك النصوص، وسامعها يقف على دلالات التراكيب، ويعيش في ظلالها ويستبطن المعنى ويتأثر به[158]،وقد خلصت هذه الدراسة إلى جملة نتائج أهمها:

1- إن التقديم والتأخير بين الأفعال يضع الفعل موضعه الذي يضيف إلى السياق معنى لا يمكن لغيره أن يحل محله، وقد ورد بكثرة في القرآن الكريم في كل سوره، حتى نَدُر أن تخلو منه سورة، وفي أكثر من موضع.

152- النجم: 8.

153- الكشاف: 636/5.

154- التحرير والتنوير، 96/27.

155- الجامع لأحكام القرآن، 17/20.

156- البحر المحيط، 8/ 156.

157- التفسير الكبير، 286/28، الجامع لأحكام القرآن، 17/20، تأويل مشكل القرآن، 193- 194.

158- التعبير القرآني، السامرائي، 53.

2- للتقديم والتأخير بين الأفعال في الآيات القرآنية دوره في إظهار الاهتمام بالمقدم، وبيان فضله وشرفه، ورعاية الفاصلة وغيرها.

3- قد يكون للموضع الواحد من التقديم والتأخير أكثر من غرض بلاغي، فما يراه متلق قد لا يراه آخر، فإن لم تتعارض يؤخذ بها جميعها أو يرجح بعضها لكونه أهم، وإن كانت الأخرى أهم في محل آخر، وإن تعارضت أُخذ بأقواها، وإن تساوت كان المتكلم بالخيار في تقديم أي الأغراض شاء[159].

4- أن الأغراض البلاغية سواء في التقديم والتأخير الاصطلاحي أم غير الاصطلاحي متقاربة جدا مما يدل على دور السياق في ذلك وأهميته.

5- أن الغرض البلاغي قد يغلب أصالة بعض الحروف في الترتيب كالفاء مثلا فقد تقدم المسبب على السبب في الفعال المتعاطفة بها.

قائمة المصادر والـمـراجع

ـ القرآن الكريم برواية الإمام قالون عن نافع المدني، المكتوب بالخط الكوفي .

ـ أسلوبية الانزياح في النص القرآني، أحمد الخرشة، رسالة دكتوراه، جامعة مؤتة، كلية الآداب، 2008م.

ـ البحر المحيط، أبو حيان التوحيدي، تحقيق: عادل عبد الموجود وآخرين، دار الكتب، العلمية، بيروت، ط1 ، 1993م.

ـ البرهان في علوم القرآن، الزركشي، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، مكتبة دار التراث، القاهرة، ط2، 1972م.

ـ بلاغة التقديم والتأخير في القرآن الكريم، علي أبو القاسم عون، دار المدار الإسلامي، بيروت، ط1، 2006م.

ـ البلاغة والأسلوبية، محمد عبد المطلب، الشركة المصرية العالمية، القاهرة، (د.ط)،2006م.

ـ تأويل مشكل القرآن، ابن قتيبة، تحقيق: السيد أحمد صقر، دار الكتب العلمية، بيروت، ط3، 1981م.

ـ التعبير القرآني، فاضل السامرائي، دار عمار، عمان، ط4، 1998م.

159- البرهان، 275/3.

ـ تفسير أبي السعود، لأبي السعود، تحقيق عبد القادر عطا، مكتبة الرياض الحديثة، الرياض، (د. ط) ، (د. ت).

ـ التحرير والتنوير، محمد بن عاشور، الدار التونسية للنشر، تونس– ليبيا، (د. ط)، 1984م.

ـ التفسير الكبير أو مفاتيح الغيب، الفخر الرازي، دار الفكر، بيروت، ط1، 1981م.

ـ الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، تحقيق: عبد الله التركي، ومحمد عرقسوسي، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط1، 2006م.

–خصائص التعبير القرآني وسماته البلاغية، عبد العظيم المطعني، مكتبة وهبة، ط1، 1992م.

ـ روح المعاني، الألوسي، دار إحياء التراث، بيروت، (د. ط) ، (د. ت) .

ـ صحيح مسلم، الإمام مسلم، دار الاعتصام، القاهرة، (د. ط)، 2011م.

ـ صفوة التفاسير، محمد علي الصابوني، دار القرآن الكريم، بيروت، ط4، 1981م.

ـ كتاب دلائل الإعجاز، عبد القاهر الجرجاني، قراءة وتعليق: محمود محمد شاكر، دار المدني، جدة، ط3، 1992م.

ـ الكشاف، الزمخشري، تحقيق: عادل عبد الموجود، الرياض، ط1، 1998م.

ـ المثل السائر، ابن الأثير، تقديم وتعليق: أحمد الحوفي، بدوي طبانة، دار نهضة مصر، القاهرة، (د. ط) ، (د. ت).

ـ مفتاح العلوم، السكاكي، تحقيق: نعيم زرزور، دار الكتب، العلمية، بيروت، ط2، 1987م.

ـ من أساليب التعبير القرآني، طالب الزوبعي، دار النهضة العربية، بيروت، ط1، 1996م.

ـ من بلاغة القرآن، أحمد أحمد بدوي، شركة نهضة مصر، (د. ط)، 2005م.